# الخطابة عند العرب

﴿ محاضرة ﴾


القاها السيد

محمد الخضر حسين


في نادي جمعية الشبان المسلمين بالقاهرة

مساء الاربعاء ٥ ذى القعدة سنة ١٣٤٦


القاهرة

١٣٤٦

بسم الله الرحمن الرحيم

احمد لله رب العالمين * وصلى الله على خاتم النبيين ، وعلى آله وصحبه وسلم

أيها السادة ،

أملنا وثيق في أن تنهض هذه الجمعية وتضرب بجناحيها في اقبال ونجاح . وما علينا إلا أن نبتغي بها الاسباب التي تصعد بالجماعات الى أن تكون عزيزة الجانب ثابتة الاقدام

ومن خير هذه الاسباب وأقربها الى الغاية المنشودة صرفنا العناية فى اتقان صناعة البيان . ومن أجل هذا اخترتُ أن ألقى كلمة في الخطابة عند العرب ، فقد كانت مظهراً من مظاهر الابداع وعاملا من عوامل الاصلاح

ولا بأس في أن أفتتح هذه الكلمة بالحديث عن حقيقة الخطابة في لسان الفلسفة وإن كانت وجهتنا أدبية ، فان للوجهة الادبية في هذا الموضوع صلةً بالوجهة الفلسفية

## ( ٤ )

## ﴿ ما هي الخطابة ؟ ﴾

يذكر المناطقة الخطابة فيقولون : هـذا القياس من قبيل الخطابة ، وليس ببرهان ، والخطابة على هذا القصد ضربٌ من ضروب القياس ، وهي القيـاس المؤلف من أقوال مظنونة أو مقبولة ، والاقوال المظنونة مايؤخذ فيهابالمحتمل الراجح ، والاقوال المقبولة ما تُتلقى ممن يُعتقد صدقه وسداد رأيه

ومثال الخطابة المؤلفة من أقوال مظنونة أن تشير الى امة غربية أو شرقية وتقول : هذه الامة تساس بارادتها ، لان لها مجلساً نيابياً ينظر في شئونها ، وهذا الاستدلال يرجع الى الخطابة القائمة على أقوال مظنونة ، اذ الشأن في الامم ذات المجالس النيابية أن تكون مسوسة بارادتها ، ولا يبلغ هذا الاستدلال أن يكون قاطعاً اذ من الجائز ، ولو على بعد ، أن تجول عند انتخاب الاعضاء ريح ضاغطة ، فلا يجري الانتخاب على وجهه الصحيح

ومثال الخطابة المؤلفة من أقوال مقبولة أن تقول لمن يتخبطه الغضب حين يُنقد قوله : لا تستنكف من أن يُردّ عليك رأيك ، فقد قال الخليفة المأمون : إن العلم على المناقشة أثبت منـه على المتابعة . أو تقول لمن يبلى بسلطة جاهل : لا تطع من يأمرك بغير

هدى ، فقد قال أبو بكر الصديق رضى الله عنه : فاذا عصيت الله ورسوله فلاطاعة لي عليكم

ومقابل الخطابة أربعة فنون :

(أحدها) البرهان ، وهو القياس المؤلف من أقوال يقينية ، كأن تقول : تونس مملكة غير مستقلة ، لانه يقيم في تكناتها ويقبض على زمام أمرها رجال فرنسيون . وانما كان هذا القياس برهانا لان العقل لا يستطيع أن يتصور لامة استقلالا الا أن يكون لرجالها الرأي النافذ والكلمة العليا

( ثانيها ) الجدل ، وهو القياس المؤلف من أقوال مشهورة مسلّمة بين الناس ، أو أقوال يسلمها المخاطب ولو لم تكن في نفسها صادقة . ومثال ما كان مؤلفاً من أقوال مشهورة مسلمة بين الناس أن تشير الى قوانين أو محاكم ترفع الاقوياء على المستضعفين درجة أو درجات ، وتقول : هذه القوانين قبيحة الوضع ، أو هذه المحاكم قبيحة الهيأة ، لانها لاتقوم على أساس المساواة بين الناس . وهذا الاستدلال يرجع الى أقوال عرفها الناس وتعاقدوا على صحتها ، وهي أن عدم المساواة بين الناس ظلم ، وأن قبح الظلم شديد

ومثال القياس المؤلف من أقوال يسلمها المخاطب ولم تكن في نفسها صادقة أن تحاور من لا يعرف الحق والباطل ، أو الضار

والنافع ، وانما يعرف الجديد والقديم ، فتقول له : الخمر غير لائقة ، لان أحدث قانون وضع لها في البلاد الغربية يمنع من تناولها . وهذا القياس يعتمد على قول يسلمه مخاطبك الذي يدور مع الجديد أينما دار ، وهو أن كل شيء يوضع له قانون جديد يمنع من تناوله فهو غير لائق . ولو قلت : الخمر غير لائقة لان علماء الاجتماع بامريكا قرروا أنها قذى في عين المدنية وعثرة في سبيل العمران ، كان قياسك هذا من قبيل الخطابة

( ثالثها ) الشعر ، وهو القياس المؤلف من أقوال خيالية ، ومثال هذا أن يزين لك الرجل الخمول والقعود عن الناس في ناحية ، فيقول : الخمول أهنأ حياة وأقرب الى السلامة من الظهور ، فان عواصف الرياح تحطم الاشجار الشامخة برءوسها ، ولا تمس الشجر القريب من الارض بسوء . وانما كان هذا القياس شعراً لانه لم يزد على أن خيل اليك الظاهر بالعمل مع الجماعة في صورة ما تصرعه الرياح العاصفة حتى تأخذك روعة وتسل يدك من يدهم نفوراً وفزعاً . ويمكنك أن تعارض هذا الخيال بخيال مثله فتقول : الظهور خير من الخمول ، فان الثعالب تدوس النبات القريب من الارض بأرجلها ، ولا تصل الى الاشجار الشامخة الا أن ترمقها باعينها .

وقد يجتمع في القياس الواحد الشعر والخطابة ، ومثال هذا أن تقول : علموا البنات تحت ظلال الصيانة والحياء ، فانهن من البنين بمنزلة أعجاز القصيدة من صدورها ولا يحسن في القصيدة الواحدة أن تكون صدورها محكمة ، وأعجازها ضعيفة متخاذلة . وهذا القياس من جهة مافيه من تخييل شعر ، ومن جهة مايضعه في النفس من اقناع خطابة . وهـذا النوع من الاستـدلال هو ما يسميه الباحثون في فلسفة الأدب بالتمثيل الخطابي

( رابعها ) السفسطة ، وهي القيـاس المؤلف من أقوال لم تستوف شرائط الانتاج ، ومثاله أن يقول من في قلبـه مرض : إن نبذ آداب الدين تطوّر من تطورات العصر ، وتطورات العصر لا تأتى مقاومتها بشيء . وانما كان هـذا القياس من نوع السفسطة لان التطورات التى لا تقاوم انما هي التطورات الناشئة عن سنن كونية ثابتة ، أو التطورات التى يأتيها الناس برجاحة عقل وسلامة ذوق ، أما التطورات الحادثة عن اهواء أو جهالة فهي التى تجيء الشرائع وتؤلف الكتب وتلقى الخطب لمحاربتهـا وتطهير الارض من أرجاسها ، وإن لبسها الرؤسـاء ومن في الارض جميعا

ولعل بعض السـادة الحاضرين يلاحظون انا سقنا أمثلة

الخطابة وما يقابلها من فنون القياس على غير الطريقة المعروفة في درس القوانين المنطقية ، فلم نقل مثلا : تونس مملكة شرقية يقبض على زمامها رجال فرنسيون ، وكل مملكة شرقية يقبض على زمامها رجال فرنسيون فهي غير مستقلة ، النتيجة تونس غير مستقلة

وعذرنا فيما سلكنا أن هذه المقاييس لا ترد في المخاطبات التي تراعى فيها قوانين البلاغة الا محذوفة احدى المقدمتين أو النتيجة أي محذوفة ما تدل عليه قوة الكلام تفصيا من وصمتي التكرار والاطالة لغير جدوى

ويراد من الخطابة القوة الصانعة للاقوال المقنعة . وعلى هذه البابة رسمها ارسطو فقال : هي قوة تتكلف الاقناع الممكن في كل واحد من الاشياء المفردة

ومعنى هذا ان الخطابة قوة يطيق صاحبها اقناع المخاطبين في كل شيء يدعى أنه غرض صحيح ؛ والاقناع تقوية الظن ، وهو ما تعتمد عليه صناعة الخطابة

وانما وصف الاقناع بالامكان فقال « تتكلف الاقناع الممكن » لان شأن هذه الصناعة اعداد النفوس لعمل الاقناع وان لم تبلغ غايتها القصوى . وكذلك الشأن في سائر الصناعات فانها تعد

النفس لعمل خاص . ثم ان الناس يكونون فيها على درجات متفاوتة متفاضلة

وانما قال : في كل واحد من الاشياء المفردة لان الخطابة تتناول كل العلوم والفنون ، ويسوغ لها أن تدخل في كل شيء صغيراً كان أو كبيرا ، معقولا كان أو محسوسا . ومن هنا قال الباحثون في شؤونها : يلزم الخطيب أن يكون ملماً بالعلوم والفنون ما استطاع ، وأن يسعى دائباً الى أن يزداد في كل يوم علما

أما الخطابة في لسان الادباء والبلغاء فهي القاء الكلام المنثور ، مسجعاً أو مرسلا ، لاستمالة السامعين الى رأي أو ترغيبهم في عمل ، وهذا ما يريدونه عند ما يذكرون الخطابة ، ويقولون : فلان يقوم على الخطابة أكثر مما يقوم على الكتابة

والخطابة عند هؤلاء وان كانت تعتمد على الاقوال المظنونة أو المقبولة ، قد يدخل فيها ما يسمى عند المناطقة برهاناً ، قال صاحب المناهج الادبية : والاقوال الصادقة يقيناً لا تقع في الخطابة من حيث انها خطابة ، فان ألم بها الخطيب فقد عدل بالخطابة عن أصلها . وربما أتى الخطيب على أقوال مموّهة أي ذات جمل تشبه ما يكون صادقا وليست في نفسها صادقة ، أو ذات هيأة تشبه

ما يكون صحيحاً وليست في نفسها بصحيحة ، قال مالك بن دينار : رأيت الحجاج يتكلم على منبره ويذكر حسن صنيعه لاهل العراق وسوء صنيعهم له ، حتى انه ليخيَّل الي انه صادق مظلوم

## ﴿ شرف الخطابة ﴾

تشرف العلوم والصنائع بمقدار ما تشرف غاياتها . وللخطابة غاية ذات شأن خطير ، وهي ارشاد الناس الى الحقائق وتشويقهم الى ما ينفعهم في هذه الحياة وفي تلك الحياة . والخطابة معدودة في وسائل السيادة والزعامة ، سمع الامام علي بن أبي طالب زياداً يخطب ـ وكان زياد لا يدعى يومئذ لابي سفيان ـ فقال : لو كان هذا الفتى قرشياً لساق العرب بعصاه . وكانوا يعدونها شرطاً للامارة ، ألا ترون الى عبد الله بن زياد ـ وكان خطيباً على لكنة في لسانه ـ كيف يقول : نعمَ الشيء الامارة لولا قعقعة البرد والتشرّف للخطب

وقد عني الاسلام بالخطابة اذ شرعها في أيام الجمع والاعياد ومواسم الحج ، شرع الخطابة وما شرعها الا ليتولاها ذو نباهة وعلم وبلاغة

يتولاها ذو نباهة ليكون بصيراً بما يطرأ على نظام الجماعة من خلل ، وبما ينصبه اعداؤها من مكايد ، وبما يبيته منافقوها من تضليل

يتولاها ذو علم حتى يفرق بين المعروف والمنكر ، ويميز الاوهام من الحقائق ، ويكون ارشاده مملوءاً بالمواعظ الحسنة والحكم السامية

يتولاها ذو بلاغة ليختار من أساليب البيان ما تألفه الاذواق وتنفتح له الصدور . وكذلك كانت الخطابة يوم كانت اللغة في حياتها الزاهرة وكان الخطباء كما ولدتهم امهاتهم أحرارا

ففي الخطابة شرف عظيم ، وشرفها في أن يكون القائم عليها نبيهاً عالماً بليغاً

قد يبلغ الخطيب بحذقه فى فنون البيان أن يريك الباطل فى صورة الحق ، ويخيل اليك الشقاء سعادة . وهذا لا يزري بقدر الخطابة ،وان هي الا ككثير من وسائل الخير التى قد يذهب بها بعض الناس فى غير مذهبها ، ويضعها فيما ليس من شأنها ، ومثلها فى هذا مثل السيف تهزه يد العدل لتضرب به الباطل مرة ، ويهزه الباطل ليسطو به على الحق مرة اخرى

## ﴿ ماذا تفعل الخطابة ؟ ﴾

الخطيب البارع يقف في الجند المتباطيء ويصف له ما يناله الابطال من عزة يوم يعيشون ، أو سعادة يوم يموتون ، فينقلب التردد عزما صارما ، والاحجام هجوما رائعا

الخطيب البارع يقف في الجماعة الخاملة فيهز قلوبها هزا ، فاذا هي ناهضة من خمولها ، عاملة لاعلاء ذكرها ، مقتحمة كلّ عقبة تقوم في طريقها

الخطيب البارع يقف بين قوم نشأوا في بيئة مغبّرة جهلا وعماية ، أو تلقتهم دعاة الغواية قبل أن تألف الحقّ بصائرهم ، ويشتد في العلم ساعدهم ؛ فلا يبرح يعرض عليهم سبل الهداية في استوائها ونقائها ، فاذاهم الرجال المصلحون أو الزعماء الناصحون

الخطيب البارع يقف بين طائفتين استعرت بينهما نار العداوة ، ولم يبق بينهم وبين أن يصبح لون الأرض أحمر قانياً الا شبر أو ذراع ، فيذكرهم بعواقب التدابر وينذرهم مصارع التقاتل ، فاذا القلوب راجعة الى ائتلافها ، والسيوف عائدة الى اغمادها

والشعراء يقرنون الخطابة بالسيف لتشابههما في اعلاء كلمة الحق وحمل النفوس الجامحة على أن تعود الى السكينة والنظام ، وهذا أحد الشعراء يسمى فعل السيف خطبة فيقول :

السيف أصدق من زياد خطبة  في الحرب ان كانت يمينك منبرا

وآخر يسمى نفسه يوم يطعن بالسيف خطيبا فيقول :

إذا لم أكن فيكم خطيبا فانني  بسيفي في يوم الوغى لخطيب

ورب كلمة يلقيها الخطيب فتنفذ في قلب السامع وينتفع بها في سيرته ما دام حيا ، قال الحسن : لقد وقذتني كلمة سمعتها من الحجاج ، فقيل له : وإن كلام الحجاج ليقذك ! فقال : نعم ، سمعته على هذه الاعواد يقول : ان امرءاً ذهبت ساعة من عمره في غير ما خلق له لحري أن تطول عليه حسرته

ولشدة وقع الخطب في نفوس الملأ ترى الرئيس المستبد ينظر الى الخطباء الاذكياء بعين عابسة ، يحذر من أن يحوموا حول سيرته ، ويقنعوا الناس بأن لا طاعة لمن يضطهد حقوقهم ولا ينصح في تدبير شئونهم

## ﴿ اطوار الخطابة ﴾

كان للعرب في الجاهلية خطابة أدبية ، ولكنهم كانوا يقدمون الشاعر على الخطيب من جهة أن الشعر أعلق بالاذهان وأسرع تقلبا في البلاد ، فهو أرفع صوتا بمفاخرهم ، وأكثر اذاعة لمثالب أعدائهم . وتقديم العرب للشاعر على الكاتب واقبالهم على حفظ الشعر أكثر من اقبالهم على حفظ الخطب ، كان السبب في قلة ما وصل الينا من خطبهم في الجاهلية

والخطب التي يمكننا أن نستخلص منها صورة الخطابة في

ذلك العهد ، هي هذه الخطب التي تؤثر في كتب الادب والتاريخ كخطب وفود العرب عند كسرى ، ثم هذه الخطب المروية في كتب السيرة النبوية لزعماء العرب الذين يفدون على رسول الله ﷺ ، مبدأ اعتناقهم للاسلام

والنظر إلى جملة هذه الخطب يجعلنا على ثقة من أن الخطابة قبل الاسلام كانت بهذه المنزلة المناسبة لامة هي الى البداوة أقرب منها الى الحضارة ولكنها كانت ذات ذكاء وحسن تصرف في فنون البيان

وهذه الخطب تمثل الخطابة فى عهد الجاهلية سواء علينا أكانت ماثورة على نحو الواقع ، أم وصلت أثارة منها الى أيدي الرواة وأضاف اليها بعضهم جملا تحاكيها في أسلوبها وطرز تفكيرها

ولا وجه لانكار أن يكون في العرب قبل الاسلام خطابة ممتازة ، فان الخطابة أثر انفعالات تنشأ عن حوادث تمس الجماعات ، ولم تخل حال العرب من حوادث على هذا النحو ، فقد كانوا مطبوعين على التفاخر بخصال السؤدد كاباءة الضيم وحماية الجار ، وعلى التفاخر بمجد الآباء والعشيرة والقبيلة ، فتثور بينهم لهذه الطبيعة محاورات شديدة وجدال عنيف ، وكانت الحروب بينهم لا تكاد تضع أوزارها ، وكانت لهم بعد هذا مجامع ينشرون

فيها مصنوعات قرائحهم ليباهوا بما فيها من بلاغة وحكمة

واذا كان في لغة القوم بلاغة ، وفي نفوسهم طموح الى السيادة ، وفي ألسنتهم قوة على الجدل وشدة في المحاورة ، وفي أيمانهم سيوف تتجافى عن أغمادها ، وفي بلادهم أسواق بضاعتها ما تبتدعه القرائح ، فما الذي يمنعهم من أن يلدوا خطباء يقرعون الأسماع بذكر مفاخرهم ، ويثيرون العواطف الى الدفاع عن أعراضهم وأنفسهم وأموالهم ؟

طلع الاسلام بشأنه الخطير فاتسع مجال الخطابة ، واشتدت البواعث على ركوب منابرها ، ومن أهم هذه البواعث الدعوة الى هداية الاسلام ، والتحريضُ على الوقوف في وجه خصومه بعزم وطيد واقدام حكيم . ويضاف الى هذا أن من أسباب اجادتها وابداعها ما بهرهم به القرآن ومنطق رسول الله ﷺ من بلاغة القول وروعة الاسلوب

وقد تنفس صدر الاسلام برجال سبقوا في حلبة الخطابة حتى أصبح الخطباء لذلك العهد يقدمون على الشعراء ويرفعون فوقهم درجات ، خصوصا عند ما انحط الشعر بالاسراف في المديح والاقذاع في الهجاء ، والاغراق في التشبيب ؛ وفي المديح المفرط ملق ، وفي الهجاء المقذع دناءة . وأقل ما يدل عليه الاسراف في

التشبيب أن صاحبه لا يرجي لمقامات الجد ولا يصلح لان تناط به جلائل الاعمال .

واستمرت الخطابة لأول عهد الدولة العباسية بمنزلتها التي بلغتها في صدر الاسلام ، ومن بلغاء الخطباء في هذا العهد أبو جعفر المنصور ، والمأمون بن الرشيد ، وجعفر بن يحيى ، وشبيب بن شيبة

ولما اختلط العرب بالعجم وأصبح الموالى يتقلدون امارة الجيوش وولاية الاعمال ، ساءت حال الخطابة العربية فاغبر وجهها ، وبلي ثوبها وتضاءل على المنابر صوتها . وفى هذا العهد قامت سوق السجع واندفع يستولى على النثر كتابة وخطابة . واذا كان فى بعض الخطب المنسوجة على منوال السجع فصاحة ورونق كخطب ابن نباته ، فان كثيرا منها لم يكسبه السجع الا سماجة وثقلا . والتزام السجع كما يقول ابن خلدون ناشىء من القصور عن اعطاء الكلام حقه في مطابقة مقتضى الحال

عند ما سقطت بغداد في أيدى التتار وصارت الدولة الى أيدي امراء لا يعنيهم شأن العربية انحطت اللغة الى درك سافل وظلت الخطابة بعد هذا مقصورةً على أيام الجمع والاعياد ومواسم الحج ، وموقوفة على مواعظ محدودة بعد ان كانت تخوض الارشاد الى وسائل العزة ووجوه الاصلاح

وما برحت الخطابة في موقفها حتى أقبل عهد الخديوي اسماعيل باشا واهتزت في مصر حركة اجتماعية أو سياسية ، فنشطت الخطابة من عقالها بل بُعثت من مرقدها ، وتخلصت من قيود السجع فاتت من الآثار ما تقرأون اليوم وما تسمعون

## ﴿ أسباب ارتقاء الخطابة ﴾

اذا اعتبرنا باطوار الخطابة عند العرب نجد الخطابة أخذت ترتقي في ثلاثة احوال : في أواخر عهد الجاهلية ، في صدر الاسلام ، في صدر نهضتنا الحاضرة

نأخذ من الحالة الاولى أن من أسباب رقي الخطابة — بعد فصاحة اللغة — حياةَ الامة في بيئة حرة ، وشعورَها بانها ذات سؤدد وفخار ، وكثرة ترددها على حروب تدافع فيها عن أعراضها ونفوسها وأموالها

ونأخذ من الحالة الثانية أن من أسباب رقي الخطابة اعتناق الامة ديناً تحملها الغيرة والعاطفة على أن تبث نصائحه وتجاهد في سبيله بما تملك من قوة

ونأخذ من الحالة الثالثة أن من أسباب رقي الخطابة شعور الامة بالحاجة الى أن تأخذ الحالة الاجتماعية السياسية هيأة غير هيأتها ، وتسلك سيرة أقوم وأهدى من سيرتها

## ﴿ تعلم الخطابة ﴾

قد يدرس علوم الادب بما فيها من علمي العروض والقوافي من لا يدرى كيف يصنع شعراً مستقيم الوزن سليم القافية ، وقد يدرس علوم الادب بما فيها من علوم البلاغة من لا يستطيع أن يكتب خطابا يسيغه الذوق الصحيح . كذلك الرجل قد يدرس قوانين الخطابة و يضيف اليها التضلع من علوم اللغة و آدابها ثم لا يكون له بعد هذا في الخطابة العملية جزء مقسوم

الخطابة لا يحكم صنعها الا من يأخذ بها خاطره يوماً فيوما ، ويروض عليها لسانه في هذا المجمع مرة وفي ذلك المجمع مرة اخرى

نقرأ فى كتب الادب مايدلنا على ان العرب كانوا يأخذون انفسهم بالتدرب على الخطابة حتى تلين لهم قناتها ، نجدهم حين يتحدثون عن عمرو بن سعيد بن العاص يقولون : انه كان لا يتكلم الا اعترته حبسة فى منطقه فلم يزل يتشادق ويعالج اخراج الكلام حتى مال شدقه . ومن أجل هذا دعي بالاشدق ، وايله يعني الشاعر الذى يقول :

تشدَّق حتي مال بالقول شِدقه
وكلُّ خطيب لا أبالك أشدقُ

وربما تصدى بعض خطبائهم لتعليم الفتيان كيف يخطبون ، يقص علينا صاحب العقد الفريد أن بشر بن المعتمر مر بالخطيب ابراهيم بن جبلة السكوني وهو يعلم فتيانهم الخطابة فوقف بشر يستمع ثم قال لهم : اضربوا عما قال ابراهيم صفحا ، واطووا عنه كشحا. ثم دفع لهم صحيفة من تنميقه تحتوي شيئا من آداب الخطابة

والخطابة كسائر الصناعات ، يتفاوت الناس فى اتقانها والاخذ بزمامها ، فمنهم من يمتلكها فى أمد قريب ، ومنهم من يحتاج الى أن يصرف فى مزاولتها زمناً بعيداً وقد كان أهل الادب يقولون : انهم لم يروا قط خطيباً بلدياً الا وهو فى أول تكلفه للخطابة مستثقلا الى أن يتوقح وتستجيب له المعاني ويتمكن من الالفاظ . الا شبيب بن شيبة ، فانه ابتدأ بحلاوة ورشاقة وسهولة وعذوبة

واذا كانت الخطابة صناعة تتعاصى على طلابها الا أن يأتوها من طريق الدربة والممارسة ، فمن اللائق برجال يتقلدون فى هذه الامة أمر التعليم أن يفرضوا لها من أوقات الدراسة نصيبا كافيا ، حتى تخرج لنا هذه المعاهد والمدارس خطباء يقودون الامة الى حيث تلقى السيادة والعظمة

## (٢٠)

### ﴿ اعطاء الحروف حقها ﴾

ومما يقيم الخطبة ويكسوها رونقاً أن يلفظ الخطيب بالحروف متمكنة من مخارجها ، وقد كان العرب يحتفلون بهذا الوجه من الحسن فيأسف الخطيب على سقوط شيء من أسنانه ، وانما يأسف لأن يفوته النطق ببعض الحروف على وجهها الصحيح . سقطت ثنايا عبد الملك بن مروان فشدها بالذهب وقال : لولا المنابر ما باليت متى سقطت

وكانوا يفضلون الخطيب الذي يُمكّن الحروف من مخارجها على الخطيب الذي يضع الحرف بمخرج غير مكين خطب الجمحي وكان منزوع إحدى الثنيتين فكان عند ما ينطق يخالط نطقه شيء يشبه الصفير ، وخطب عقبة زيد بن علي بن الحسين ، فاجاد الخطيبان الا أن زيد بن علي فضّل الجمحي بتمكين الحروف وحسن مخارج الكلام فقال عبد الله بن معاوية يذكر ذلك :

صحت مخارجه وتمّ حروفها فله بذاك مزية لا تنكر

وهجنة الحروف غير المتمكنة ونبوها عن السمع كان بعض الخطباء الذين يبلون بنحو اللثغة يتجنبون في كلامهم الحرف الذي يتعذر عليهم أن يلفظوا به على وجه سليم ، ومثل هذا واصل

الغزال فقد كان ألثغ قبيح اللثغة في النطق بالراء ، فكان يتحامى أن ينطق بكلمة تحتوي الراء على كثرة تردد الراء في الكلام ، ولقوة عارضته وغزارة مادته من اللغة استطاع أن يلقي الخطب الطوال دون أن يأتي على لفظ يشتمل على هذا الحرف ، وقد مدحه بهذا الصنيع بعض الشعراء فقال :

عليم بابدال الحروف وقامع
لكل خطيب يغلب الحقَّ باطله

ومما يؤخذ به الخطيب أن ينطق بالالفاظ في عجل حتى يصل الحرف او اللفظ بأخيه قبل أن يستقر الحرف او اللفظ الاول في موضعه ، والادب الجميل أن يمكن الحروف تمكيناً ، ويفصل الكلمات تفصيلا ، وكذلك كان كلام أفصح الخليقة صلوات الله عليه ، قالت ام المؤمنين عائشة رضى الله عنها : ما كان رسول الله يسرد سردكم هذا ولكنه كان يتكلم بكلام بين فصل يحفظه من جلس اليه

## ﴿ حسن الالقاء ﴾

لاختيار المعانى وحسن تنسيق الالفاظ وقع في نفوس السامعين بليغ ، ومما يزيد الخطبة حسنا على حسنها أن يجيد الخطيب

القاءها ، ونعني بإجادة الالقاء أن لا يستمر في نطقه بالجمل على حال واحدة ، بل تكون الجمل متفاوتة في مظاهرها من نحو رفع الصوت وخفضه وتفخيمه وترقيقه ، والوقوف عند جملة ، أو وصله بأخرى ، والضغط على الكلمة أو التلفظ بها في هوادة ، وأنتم تعلمون أن من هيآت النطق بالجملة ما يشعر بابتهاج الخطيب أو حزنه ، ومنها ما يلائم الجمل التي يلقيها وهو واثق بصحتها ، ومنها ما يلائم الجمل المرسلة لتهكم أو مزاح ، ومرجع هـذا كله الى ذكاء الخطيب وسلامة ذوقه

وجودة القاء الخطبة هي التي تجعل لسماعها فضلا على قراءتها في صحيفة ، وكم من خطبـة يحسن الرجل القاءها فيجد الناس في سماعها من الارتياح وهزة الطرب فوق ما يجدونه عند ما يقرأونها في صحيفة او يستمعون الى من يسردها عليهم سردا متشابها

## ﴿الاشارة فى الخطابة﴾

من سنن الخطابة عند العرب وغير العرب أن يقرن الخطيب بعض أقواله باشارات محسوسة ، كرفع اليد وخفضها ، او قبضها وبسطها ، او ادارتها الى اليمين في حال وادارتها الى اليسار في حال اخرى ، وأمثال هـذه الاشارات لا يكاد صاحب حديث

يستغني عنها ، قال عُلمة بن أشرس : لو كان ناطق يستغني بمنطقه عن الاشارة لاستغنى جعفر بن يحيى عن الاشارة كما استغنى عن الاعادة

وقد يتكلف الرجل ان يتكلم في هدو وسكون ، ويحرص على أن لا يتحرك من جوارحه حين يتحدث غير شفتيه ولسانه ، مثل ما كان يصنع أبو شمر ويقول : ليس من المنطق أن تستعين عليه بغيره . وانما تتيسر هذه الهيأة لمن يتحدث في راحة بال وقرارة جاش ، وليس هذا شأن الخطيب المطبوع ، وانما شأنه توقد الفؤاد وهياج العاطفة ، فهو في انفعال يضطره الى أن يحرك يده ولو قليلا

فالخطيب الاحوذ من يحتفظ بحسن الصمت ، ولا يكثر من الاشارة ، واذا أشار فانما تكون اشارته من الحكمة كأنها شيء استدعاه المعنى بطبيعته

## ﴿ القيام بمكان مرتفع حال الخطابة ﴾

يقف الخطيب بمكان مرتفع لكي يمتد صوته الى مدى أبعد مما يبلغه لو كان قائماً بمكان مساو لمقاعد المستمعين ، ومن دواعي ارتفاع الخطيب أن يشهد الحاضرون اشاراته الممثلة

لبعض المعاني المعقولة ، ووقوف الخطيب بمرأى من المستمعين يدعوهم الى الاقبال عليه بأوفى مما لو كانوا يسمعون حديثه وهو غائب عن أبصارهم

وكان رسول الله ﷺ يخطب يوم الجمعة مسنداً ظهره الى جذع منصوب فى المسجد ، ثم أمر فصنع له منبر من طرفاء الغابة وكان ذلك المنبر مركباً من ثلاثة درج ، وبقي بهذه الهيأة حتى زاده مروان فى خلافة معاوية ست درجات من أسفله ، وقال : انما زدت فيه حين كثر الناس

وكان العرب يخطبون من قيام ولا يخالفون هذه العادة الا في خطبة النكاح فانهم يلقونها من جلوس اذ ليس من شأنها أن تحتوي معاني تدعو الحاجة الى أن يسمعها جميع الحاضرين

وكان عليه الصلاة والسلام يخطب قائماً ، وكذلك كان شأن الخلفاء الراشدين ، وروي أن معاوية بن أبى سفيان رحمه الله خطب جالسا ، وذكروا في وجه الاعتذار عنه انه جلس للخطبة حين ثقل جسمه ، وروى مسلم في صحيحه ان عبد الرحمن بن الحكم خطب فى يوم جمعة قاعداً فانكر عليه بعض الصحابة وقال : انظروا الى هذا يخطب قاعدا والله تعالى يقول « واذا رأوا تجارة أو لهواً انفضوا اليها وتركوك قائما »

وقد اتفق العلماء على أن القيام في الخطبة مشروع وانما اختلفوا في تقدير المشروعية ، فذهب فريق الى انه شرط في صحة الخطبة ، وقال آخرون : انه واجب ، ولو خطب من جلوس لصحت الخطبة وارتكب اثماً . والذي اعتمده الحنفية انه سنة ، ولا يبلغ حد الوجوب ، فلو خطب قاعداً مضت الخطبة على ما نقصها من أدب كان رسول الله ﷺ يحافظ عليه ما دام حياً

## ﴿ الارتاج في الخطابة ﴾

قد يعرض للخطيب وان كان ذا عارضة قوية ما يسمونه ارتاجا ، وهو أن يقف فتنقطع عنه مذاهب القول فلا يدري اين يضع كلامه ، ومن أسباب الارتاج الدهش والانبهار الذي يأخذ النفس من هيبة الملأ العظيم ، أو هيبة الرجل الذي شأنه أن ينقد الاقوال بعقل موزون . وحال الدهش والانبهار انما تغشى ذلك الذي لم يكن على ثقة من كفايته لمقام الخطابة ، فيخشى أن يقع في معنى سخيف او لفظ مرذول . قال الكميت ابن زيد : انما يجترىء على الخطابة الغمر الجاهل ، او المطبوع الحاذق الواثق بغزارته واقتداره

والخطيب المتصنع متى أرتج عليه لم يسعه الا ان يدع الكلام وينزل عن مقام الخطابة صاغرا . أما الخطيب المطبوع فقد ينبو فكره عن الغرض الذي وقف من أجله ، ولكنه لا يعجز أن يسمع الناس كلمات بليغة يصون بها موقفه من أن يسام بغضاضة أو ازدراء

صعد خالد بن عبد الله القسري المنبر فأرتج عليه ، فمكث ملياً لا يتكلم ، ثم تكلم فقال : أما بعد فان هذا الكلام يجيء احياناً ، ويعزب أحياناً ، فيسيح عند مجيئه سيبه ، ويعز عند عزوبه طلبه . الى ان قال : وقد يرتج على البليغ لسانه ، ويختلج من الجريء جنانه ، وسأعود فاقول ان شاء الله

ويروى فى هذا الصدد أن ثابت بن قطنة صعد منبر سجستان فقال : الحمد الله . ثم ارتج عليه ، فنزل وهو يقول :

فان لا أكن فيكم خطيباً فانني
بسيفي في يوم الوغى لخطيب

فقيل له : لو قلتها فوق المنبر لكنت أخطب الناس

## ﴿ الارتجال في الخطابة ﴾

في الناس من يقف ليخطب فتنهال عليه المعانى و تتسابق اليه الالفاظ ، فيسترسل في القول دون أن يدركه حصر او يتعثر في

لجلجة ، وهذا ما نسميه ارتجالا . وفي الناس من تجيئه المعانى على مهل ، وتتوارد عليه الالفاظ فى تباطؤ ، فلا يحسن أن يخطب الا بعد أن يعد لمقام الخطابة مقالا

قال أبو هلال العسكري : في الناس من اذا خلا بنفسه واعمل فكره أتى بالبيان العجيب ، واستخرج المعنى الرائق ، وجاء باللفظ الفائق ، فاذا حاور أو ناظر قصر وتأخر ، فخليق بهذا أن لا يتعرض لارتجال الخطب

وكانوا فيما سلف يتهمون الخطيب المبدع بأنه يهيء الخطب ويحبرها تحبيرا ، وانما ينفي عنه هذه التهمة أن يحدث داع للخطابة فجأة فيقف ويخطب بما يشبه خطبه السابقة ارتجالا . قيل لبعض الخلفاء ان شبيب بن شيبة يستعمل الكلام ويستعيره ، فلو أمرت أن يصعد المنبر لرجوت أن يفتضح . فامر رسولا فاخذ بيده الى المسجد فلم يفارقه حتى صعد المنبر فارتجل كلاماً يشبه طرز خطبه ، فعرفوا انه من أولئك الذين يستطيعون أن يقتضبوا الخطب ساعة يقومون على اعواد المنابر اقتضابا

فبلاغة الخطبة فى نفسها مزية ، وارتجالها بعد هذا مزية اخرى ، وانما يقوى على ارتجال الخطبة والقائها متماسكة الحلقات ،

من سبق له أن ادرك معانى كثيرة تتصل بالموضوع ، وكانت له حافظة قوية تؤدي اليه صورة هذه المعانى كما أودعها ، وكان بعد هذا ألمعياً مهذبا ، يحسن التصرف في هذه الصور ، ويضع كل صورة بالمكان اللائق بها

أيها السادة ،

هـذا ماسمح المقام بعرضه على اسماع شبابنا الاذكياء ، وانما قصدنا تذكرتهم بهذا الفن الجليل فن الخطابة ، لعلهم يمنحونه من اقبالهم جانباً ، فان الحاجة الشديدة اليه قائمة ، والدواعي الى ترقيته وتوسيع نطاقه متجمعة ، واولو الالباب هم الذين يقدرون الحاجات فيبادرون الى سدها ، ويستمعون الى الدواعي فيحسنون اجابتها . والسلام عليكم ورحمة الله

# نقض
# كتاب "في الشعر الجاهلي"

للسيد محمد الخضر حسين التونسي

هو خير كتاب ألف في بيان اغلاط طه حسين
في كتابه عن الشعر الجاهلي
يحتوي على ٣٦٢ صفحة بقطع مجلة الزهراء ثمنه ١٢ قرشاً

# الدعوة إلى الإصلاح

بقلم

السيد

**محمد الخضر حسين**

من علماء الجامع الأزهر

وجامع الزيتونة بتونس

هي مجموعة المقالات النفيسة التي نشرت في صفحات الفتح

وكانت موضع اعجاب جميع قرائه

# العظمـــــة

محاضرة

القاها السيد

محمد الخضر حسين

في دار جمعية مكارم الاخلاق الاسلامية

يوم الجمعة ٢٦ ربيع الثانى سنة ١٣٤٦

وقد تضمنت الرد على مقالة على عبد الرازق التى كان نشرها فى جريدة السياسة يوم ١٢ ربيع الاول بمناسبة ذكرى المولد الشريف